مجلة العلوم الإنسانية والحضارة ـــ ISSN 2661-7307
المجلد 07 ـ العدد 02 ـ السنة 2025 ص 56 - 69 EISSN 2773-4048
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/730
https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

السفارات في المغرب الأوسط خلال العهد الحمادي

(405-547هـ/1014-1152م)

Embassies in Central Maghreb during The Hammadi Era (405- 547 Ah/1014 -1152 Ad)

نورالدين مسعودي

جامعة عمارثليجي الأغواط (الجزائر) *no.messaoudi@lagh-univ.dz*

تاريخ الإرسال: 2025/05/19 تاريخ القبول: 2025/06/10 تاريخ النشر: 2025/06/30

الملخص:

يحاول هذا المقال التطرق إلى الجانب الدبلوماسي في المغرب الأوسط خلال العهد الحمادي، وذلك بتسليط الضوء على علاقات إمارة بني حماد مع جيرانها من خلال تبادل السفارات بمختلف أنواعها، ومدى تحكمها في استخدام هذا النوع من الدبلوماسية لخدمة مصالحها. سنقف في هذه الدراسة على ذكر مختلف أنواع السفارات الحمادية التي تبادلتها مع جيرانها سواء كانت سياسية أو دينية، أو لعقد علاقات تحالف وتعاون، أو من أجل المصاهرة وتبادل الهدايا والتعازي.

الكلمات المفتاحية: بلاد المغرب، بني حماد، سفارات.

Abstract:

This article attempts to address the diplomatic aspect in the Central Maghreb during the Hammadi Era, by shedding light on the relations of the Emirate of Bani Hammad with its neighbors through the exchange of embassies of various kinds, and the extent of its control over the use of this type of diplomacy to serve its interests. In this study, we will mention the various types of Hammadid embassies that they exchanged with their neighbors, whether they were political, religious, to establish alliance and cooperation relations, for intermarriage and the exchange of gifts, or for condolence.

Keyword: *Maghreb countries, Bani Hammad, Embassies.*

* المؤلف المرسل

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

مقدمة:

ارتبط المغرب الأوسط بصلاتٍ وثيقة مع جيرانه؛ مستفيداً من عدّة عوامل مساعدة، يأتي في مقدمتها الموقع الهام الذي أهّل حواضره لتكون حلقة وصل بين مختلف أصقاع المغرب والمشرق من جهة، وبين السودان والأندلس، ثمّ الشمال الأوروبي من جهة أخرى، وتنوعت هذه العلاقات بين السياسية والاقتصادية والثقافية، وكانت السفارات من أفضل الطرق للتواصل بين حواضر المغرب الأوسط وجيرانه، وتنوعت أهداف السفارات بين مسائل سياسية ودعوية وعلمية، أو لعقد علاقات تحالف وتعاون، أو من أجل المصاهرة وتبادل الهدايا أو للتعزية وتبادل التهاني، وتعتبر السفارات أخطر من الحروب، كونها ترافقها لإنهائها وحصد نتائجها، لذلك كان يتعين على الحكام اختيار سفراء تتوفر فيهم المؤهلات اللازمة حتى يكونوا أقدر على التأثير وأبلغ في التعبير لإيصال مضمون السفارة. وكغيرها من حواضر بلاد المغرب تبادلت إمارة بني حماد مع جيرانها السفارات بمختلف أنواعها، فهل استطاع الحماديون تأسيس دبلوماسية قوية في المغرب الأوسط؟. وإلى أي مدى تمكنت إمارة بني حماد من استخدام السفارات مع جيرانها لخدمة مصالحها؟.

1 السفارات بين الحماديين ودول المغرب الإسلامي:

1.1 السفارات بين الحماديين والزيريين:

تميزت العلاقة بين بني زيري في القيروان وبني عمومتهم الحماديين بتوتر كبير، منذ أن أقدم حماد بن بلكين(405-419هـ/1014-1029م)[1]، على بناء القلعة والاستقلال بإمارته عن الزيريين، إلا أن ذلك لم يمنع الطرفين من التقارب من حين إلى آخر على حسب التحديات التي واجهت الإمارتين، والتي فرضت عليهما السعي إلى تحسين العلاقات والعمل جنبا إلى جنب، وتمثلت تلك العلاقات في المصاهرات وتبادل السفارات.

أ- سفارة القائد بن حماد[2]:

جاءت هذه السفارة على إثر المواجهة العنيفة التي دارت بين حماد بن بلكين (405-419هـ/1014-1029م) والمعز بن باديس(406- 454هـ/ 1016- 1062م)[3] سنة 408هـ/1017م، والتي انتهت بهزيمة قاسية لحماد وإصابته بجراح[4]، مما اضطرّ حمّاد إلى البحث عن مخرج لهذا الوضع الحرج، فقام بدعوة المعز للصلح، لكنّ المعز اشترط عليه

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

إرسال ابنه القائد(419-446هـ/1028-1054م) كي يتأكد من صدقه، وما كان من حماد إلا أن أرسل ابنه القائد سفيرا في شهر شعبان من سنة 408هـ/1018م، فأكرم المعز وفادته وتم الاتفاق وحصل حمّاد مباشرة عقب الصلح على منشور من المعز، بولايته على المسيلة وطبنة، ومرسى الدجاج وزواوة، ومقرة ودكمة وبلزمة وسوق حمزة، وأُعطي البنود والطبول[5]، واستقرّت الأمور بين الطرفين، وكُلِّل هذا الصلح بالمصاهرة، حيث زوّج المعز أخته بعبد الله بن حمّاد، ويتبين من خلال ما أسفر عنه هذا الصلح، أنّ المعز كان حريصًا على إخماد جبهة المغرب الأوسط، وذلك بإخضاع حمّاد لسلطته، وتكليفه بالوقوف في وجه زناتة المشاغبة[6]. وتذكر المصادر أنه من نتائج صلح 408هـ/1018م، التقارب الكبير بين الأمير الحمادي القائد، والأمير الزيري المعز بن باديس، ففي معلومة مختصرة يذكر النويري أن القائد بقي يتردد على المعز، ويبدو أن القائد رغم ذلك كان يختلق الأسباب للتخلص من تبعات ذلك الصلح "يضمر الغدر وخلع طاعة المعز والعجز يمنعه"[7].

ب- سفارة رجالات الأثبج إلى الناصر بن علناس:

هذه السفارة هي من أخطر السفارات التي وفدت على أمراء بني حماد، لأنها كانت وبالا عليهم لتسببها في معركة سبيبة سنة 457هـ/1065م، وكان سببها أنّ رجالا من قبيلة الأثبج وفدوا على الناصر بن علناس يطلبون منه الدعم على بني رياح، فأجابهم ونهض لنصرتهم في جيش ضم إلى جانب قواته النظامية المتكونة من العبيد، وصنهاجة، كل من زناتة، وقبائل عُدي والأثبج، وكانت المواجهة قرب قرية سبيبة القريبة من الأربس، وهناك دارت الدائرة على الناصر وحلفائه[8].

ج- سفارة أبي بكر بن أبي الفتوح:

رغم أن هذه السفارة لم يقم بها وزير بني حماد أبو بكر بن أبي الفتوح؛ إلا أنه هو المدبر والمنفذ لها، فعندما علم الناصر بن علناس(454-481هـ/1062-1088م)[9] برغبة تميم في الصلح بعد موقعة سبيبة التي عرفت هزيمة قاسية للحماديين أمام الزيريين وحلفاءهم، أسند الناصر إلى وزيره أبي بكر بن أبي الفتوح مهمة الصلح بينه وبين أمير الزيريين تميم(454-501هـ/1062-1108م)[10]، وتذكر المصادر أن هذا الوزير كان يميل إلى تميم، وكان ينصح الناصر بأن يتحاشى محاربة تميم، ويشجعه على الاتحاد معه ضد قبائل بني هلال، كي تسهل

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

عملية إخراجهم من بلاد المغرب، وعندما تلقى ابن أبي الفتوح أوامر الناصر للشروع في عملية الصلح، أوفد الوزير رسولا إلى المهدية، لم تذكر لنا المصادر اسمه ولا سنة خروجه إلى المهدية، والمؤكد أن السفارة كانت بعد معركة سبيبة 457هـ/1065م، وقبل سنة 461هـ/1068م تاريخ بناء بجاية، وكانت مهمة السفير الحمادي هي الاعتذار وعرض الصلح على تميم[11].

يبدو أن مهمة السفير الحمادي لم تكن صعبة، فعلى الرغم من الانتصار الكبير الذي حققه الأمير الزيري تميم بن المعز بن باديس على أمير الحماديين الناصر بن علناس في معركة سبيبة سنة 457هـ/1065م، إلا أن تميم أصابه حزن شديد وخوفا من استفحال خطر الهلاليين على إمارته، وإدراكا منه بأن صراعه مع بني عمومته الحماديين سيكون في فائدة الهلاليين الذين ما فتئت قوّتهم تتعاظم على حساب الزيريين والحماديين، فأخذ تميم بنصيحة مستشاريه وقبل عرض الصلح الذي نقله إليه السفير الحمادي على لسان الناصر بن علناس[12].

د- سفارة محمد بن البعبع:

حينما اقتنع تميم بن المعز(454-501هـ/1062-1108م) بعرض الصلح الذي عرضه عليه الناصر بن علناس بواسطة السفير الحمادي، استدعى تميم رجلا يدعى محمد بن البعبع وأعطاه مالا ودوابا وعبيد وأرسله إلى الناصر، فسار المبعوث الزيري بمعية السفير الحمادي إلى أن وصلا إلى بجاية التي كانت آنذاك معقلا لبعض الفلاحين من قبيلة بجاية الصنهاجية، وهناك اقترح ابن البعبع على الناصر الانتقال إلى بجاية بدلا من القلعة التي أصبحت مستباحة من طرف الهلاليين، وشرح له مزايا موضع بجاية كونها مكان ساحلي قريب من إفريقية وخصوصا المهدية يطمح الناصر للاستيلاء عليها، إلا أن تميم اكتشف خيانة سقيره فقام بقتله بمجرد رجوعه من القلعة، وقد تسبّبت هذه الحادثة أيضا في هلاك الوزير أبو بكر بن أبي الفتوح الذي قتله الناصر حين اكتشف ولاءه لأمير بني زيري تميم بن المعز، وكان لحروب الجوسسة تلك دور كبير توتر العلاقات بين الطرفين من جديد، واستمر الوضع إلى سنة 470هـ/1078م، حيث عقد الطرفان صلحا أنهى ذلك التوتر[13].

هـ- تبادل الهدايا مع حاكم صفاقس:

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

الانهيار الذي لحق بإمارة الزيريين جرّاء اجتياح قبائل بني هلال لإفريقية، والثورات التي اندلعت هنا وهناك ضد السلطة المركزية، واستقلال عُمّال المناطق بعَمالاتهم، تسبّب في ضعف الدولة الزيرية وانحصار ملكها، ليقتصر على المهدية وبعض المدن الساحلية، فأضحت إفريقية مجزّأة إلى إمارات صغيرة، تشبه دول الطوائف ببلاد الأندلس[14]، حيث يصف ابن خلدون الحالة التي وصل إليها الزيريون بقوله:« كثر الثوار عليهم والمنازعون من أهل دولتهم»، كل ذلك جعل الأمير الحمادي الناصر بن علناس يستغل الوضع للتشجيع المتمردين على سلطة بني زيري، ومنهم أمير صفاقس حمو بن مليل البرغواطي بايع الناصر وبعث له الهدايا والرسائل وبذلك أصبحت صفاقس تابعة لبني حماد[15].

و- السفارات من أجل المصاهرة وتبادل التهاني والتعازي:

تمتينا للروابط التي أصبحت قائمة بين المعز بن باديس وحماد بن بلكين، عقب عقد صلح سنة 408هـ/1017م، قام الأمير المعز بتزويج أخته أم العلو لعبد الله بن حمّاد سنة 415 هـ/1024 م، وبالغ المعز في الإنفاق على مراسيم الزفاف، فقد حُمل مهرها في عشرة أحمال، وجملته مائة ألف دينار، ومضت سفارة هذا الموكب المهيب يتقدمه الأمير المعز ووجوه من رجال الدولة[16]. وفي ذات السياق وتمتينا للروابط التي أصبحت قائمة بين الدولتين عقب الصلح الذي تم بين الطرفين سنة 470هـ/1078م، قام الأمير الزيري تميم بتزويج ابنته بلارة[17] للناصر بن علناس، وسيّرها في سفارة مهيبة من المهدية، وجهّزها بما لا وصف له بالجهاز والحلي، ومن جهته لم يتوان الناصر في بذل المال بسخاء خلال هذه المناسبة[18]. وفي ذات الإطار وتدعيما للاستقرار والهدوء الذي عرفته العلاقات الزيرية الحمادية في عهد الأمير يحيى بن تميم(501-509هـ/1108-1116م) تم سنة 509هـ/1115م، زواج العزيز بن المنصور الحمادي(498-515هـ/1105-1121م)، من بدر الدجى بنت يحيى بن تميم الزيري[19].

استقبل الحماديون سفارات بمناسبات تتعلق بالتعازي عند وفاة حكامهم، والتهنئة عند تنصيبهم، حيث يذكر ابن الأثير أن المنصور بن الناصر وصله سنة 481هـ/ 1088م، كتب الملوك ورسلهم بالتعزية لوفاة أبيه والتهنئة بالملك، وذكر ابن الأثير من هؤلاء الملوك؛ الأمير الزيري تميم بن المعز، وهو جده لأمه بلارة بنت تميم[20].

2.1 السفارات بين الحماديين والقبائل والأعيان:

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

أ- سفارة رجالات الأثبج إلى الناصر بن علناس:

هذه السفارة هي من أخطر السفارات التي وفدت على أمراء بني حماد، لأنها كانت وبالا عليهم لتسببها في معركة سبيبة سنة 457هـ/1065م، وكان سببها أنّ رجالا من قبيلة الأثبج وفدوا على الناصر بن علناس يطلبون منه الدعم على بني رياح، فأجابهم الناصر ونهض لنصرتهم، خصوصا وأنه كان يسعى لاستمالة القبائل الهلالية اقتداء ببني عمومته الزيريين، ولتوظيفهم في مشاريعه التوسعية على حساب بني عمومته الزيريين وفي حروبه مع زناتة، ثم مع دولة المرابطين. فجهّز الناصر جيشا ضم إلى جانب قواته النظامية المتكونة من العبيد، وصنهاجة، كل من زناتة، وقبائل عُدي والأثبج، وكانت المواجهة قرب قرية سبيبة القريبة من الأربس، وهناك دارت الدائرة على الناصر وحلفائه[21].

ب- سفارة الهلاليين إلى يحي بن العزيز:

كثيرا ما استغل الهلاليون الصراع الحمادي الزيري لخدمة مصالحهم، فعلى إثر الخلاف الذي كان بين الأمير الحمادي يحي بن العزيز(515-547هـ/1121-1152م)[22]، والأمير الزيري الحسن بن علي، توجه وفد من عرب بني هلال إلى بجاية، وعرضوا على الأمير يحي المساعدة للاستيلاء على المهدية على خلفية[23]، ويعود سبب انقلاب عرب بني هلال على الزيريين إلى الصلح الذي أبرمه الأمير الزيري الحسن بن علي مع رجار صاحب صقلية، فلم يُرضِ هذا الصلح المهين أهل المهدية، وقاموا بمكاتبة الأمير الحمادي يحي بن العزيز ووعدوه بتسليم المهدية، ولإثبات حسن النية تركوا أولادهم كرهائن[24]. ولم يتردد يحي في مساعدتهم وأرسل سنة 529هـ/1135م، أسطولا بحريا ورافقه جيشا في البر يقوده الفقيه مطرف بن حمدون، وانظم إليه جمع كثير من الهلاليين الذين كانوا ناقمين على أمراء بني زيري، وعندما وصلوا إلى المهدية فرضوا عليها حصارا بريا وبحريا[25]، وبعد سبعين من الحصار، نشب القتال بين الطرفين إلا أنّ حصانة المهدية حالت دون اقتحامها والاستيلاء عليها، ويبدو أن الأمير الزيري كان قد استنجد بملك صقلية رجار الذي أمده بقوة بحرية، وأمام هذه التطورات اضطر الحماديون للانسحاب[26]. دون تحقيق أي نتائج تذكر، بل على العكس من ذلك كان من نتائج هذه الحملة فتح جبهة صراع جديدة مع النورمان في صقلية، وتعميق حدة النزاع بين الزيريين والحماديين[27].

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

ج- سفارة أهل تونس:

على إثر الانهيار الذي لحق بإمارة بني زيري بفعل هجرة بني هلال، قرر أهل تونس إعلان البيعة للحماديين، فأرسلوا وفدا إلى الناصر بن علناس طالبين منه تعيين وال عليهم، فما كان من الناصر إلا الاستجابة لطلبهم بتعيين عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان، الذي بدأ ولايته بعقد صلح مع الهلاليين بدفع أتاوة لكفّ عدوانهم، وكان من مشاهير بني خراسان أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق، الذي ضبط تونس وبنى أسوارها، وبنى قصور بني خراسان، وكان يحب العلماء ويجالسهم[28].

د- سفارة أهل قسنطينة:

بعد انحصار ملك بني زيري على مجالات إفريقية، بسبب ضربات القبائل الهلالية، ارتأى أهل قسنطينة اقتداء بأهل القيروان وتونس وصفاقس مبايعة الناصر بن علناس، فوفد يحي بن واطاس مقدم أهل قسنطينة على الناصر لتقديم شواهد الإخلاص والطاعة، فأحسن وفادتهم وأجزل لهم العطاء، وعيّن عليهم رجلا من صنهاجة يدعى يوسف بن خلوف[29].

هـ- سفارات المصاهرة بين الحماديين وقبيلة زناتة:

غلب الطابع العدائي بين دولة بني حماد وقبيلة زناتة، ولم يألُ أمراء بني حماد جهدا في مقاومة زناتة المتمردة، إلا أن العلاقات الحمادية الزناتية عرفت من حين إلى آخر بعض الهدوء والتصالح، حيث تذكر المصادر أنّ قبيلة بني ومانو التي كانت تتزعم قبائل زناتة، زوجت إحدى بناتها للناصر بن علناس، وأخرى لابنه المنصور. وفي ذات المنوال سار العزيز بن المنصور(498-515هـ/1105-1121م)، حيث اقتدى بوالده وجدّه الناصر، عندما صالح قبيلة زناتة وتزوج ابنة الزعيم الزناتي ماخوخ[30].

3.1 السفارات بين الحماديين والمرابطين:

أ- السفارات من أجل التهنئة والتعازي:

رغم العلاقات المتوترة بين إمارة بني حماد ودولة المرابطين، إلا أن ذلك لم يمنع الطرفين من التواصل، فبعد وفاة الناصر بن علناس ارتقى ابنه المنصور بن الناصر سنة 481هـ/ 1088م، فتلقى كتابا من يوسف بن تاشفين بالتعزية بأبيه والتهنئة بالمُلك[31].

ب- سفارة حواء زوجة تاشفين بن يغمر:

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

جاءت هذه السفارة على إثر معركة تلمسان سنة 496هـ/1103م، بين الحماديين والمرابطين، هذه المعركة التي وقعت على إثر التحرشات المستمرة للجانب المرابطي على ممتلكات الحماديين، حيث استولى الجيش على تلمسان واتخذوها قاعدة لشن الهجمات على المدن التابعة للحماديين كوهران والشلف وتنس، ووصل بهم الأمر إلى حصار الجزائر سنة 475هـ/1083م[32]، وبعد حصار تلمسان تمكن الجيش الحمادي من إلحاق الهزيمة بجيش المرابطين، وعندما دخلت قوات المنصور بن الناصر(481-498هـ/1088-1105م)[33] إلى تلمسان خرجت إليهم زوجة قائد جيش المرابطين تاشفين بن يغمر، وتقدمت للمنصور طالبة منه الرحمة، متوسلة له بوشائج صنهاجة كي يطلق الأسرى، فأكبر قصدها وأكرم موصلها، وأفرج عن كل الأسرى، وأخرج المنصور جنوده من تلمسان وعاد إلى القلعة[34].

ج- رسالة يوسف بن تاشفين إلى المنصور بن الناصر:

عندما غزا قائد الجيش المربطي مزدلي بن تبلكان، تلمسان سنة 472هـ/1080م، تمكن من الاستيلاء عليها، ونصّب عليها يوسف بن تاشفين عاملا يدعى محمد بن يغمر المسوفي، واتخذوها قاعدة لجندهم وعتادهم بالمنطقة، وشرعوا في الإغارة على المدن التابعة للحماديين[35]، هذا الأمر أثار حفيظة أمراء بني حماد وكان لا بدّ من مواجهة عسكرية بين الجانبين لإنهاء التحرشات المستمرة على ممتلكات إمارة بني حماد منذ سنة 472هـ/1080م، وما زاد من توتر العلاقات أكثر هو استضافة المنصور لولي عهد ألمرية معز الدولة بن صمادح، وهو أحد أمراء الطوائف الذين خلعهم المرابطون من الحكم، فقرر اللجوء إلى المنصور خشية من بطش المرابطين، فأقطعه المنصور منطقة تدلس التي أقام بها حتى آخر حياته[36].

ونتيجة لذلك حشد المنصور بن الناصر(481-498هـ/1088-1105م)، قواته وزحف على تلمسان على رأس عشرين ألف مقاتل في سنة 496هـ/1103م، وتمكن من إلحاق هزيمة قاسية بالجيش المرابطي[37]، الأمر الذي أغضب كثيرا الأمير يوسف بن تاشفين، فردًا على رسالة وردت إليه من المنصور الحمادي لم تسعفنا المصادر عن فحواها، كتب ابن تاشفين إلى المنصور مخاطبا إياه بلهجة قاسية، ومعاتبا إياه بسبب اعتماده على قبائل بني هلال التي كان لها دور كبير في حسم المعركة لصالح الجيش الحمادي، ومما جاء في تلك الرسالة: «إلى

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

صاحب قلعة حماد وصل كتابك الذي أنفذته من وادي منى صادرا عن الوجهة التي استظهرت عليها بأضدادك وأجحفت بطارفك وتلادك... ». ثم أضاف: «وجدناك تتجنّى وتُتَرّبْ على من لم يستوجب التثريب... ». ثم يعاتبه على استعانته بعرب بني هلال فيقول: «تستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقترب، فتعطيهم ما في خزائنك جزافا، وتنفق عليهم ما كنزه أوائلك إسرافا...»[38].

2 السفارات بين الحماديين والعالم الخارجي:

1.2 السفارات بين الحماديين والدولة الفاطمية:

بعدما شاهد القائد بن حماد(419-446هـ/1028-1054م) ما لحق ببني عمومته الزيريين جرّاء زحف قبائل بني هلال على إفريقية، استيقن أنّ الدور سيكون عليه لا محالة، فما كان منه إلا البحث عن وسائل لتجنب المصير الحتمي الذي ينتظره، فأول عمل قام به هو مراجعة طاعة الفاطميين، حيث تذكر المصادر أن القائد تلقى مراسلة من المستنصر الفاطمي الذي لقبه بشرف الدولة، وهو الاسم الذي كان للمعز بن باديس في السابق[39]، وهي المعلومات التي تؤكدها الرسالة التي أرسلها المستنصر الفاطمي إلى صاحب اليمن يذكر فيها أنّ وفدا كان من ضمنه ابن حماد أخ صاحب القلعة، انتقل إلى قابس وهناك التقوا بمكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم، حيث قدموا فروض الولاء والطاعة، وطلبوا العفو من الخليفة الفاطمي« وخرج إليه ابن بُلكين صهره على أخته، وابن يلمو الذي هو مقدم قومه، وابن حماد الذي هو أخو صاحب قلعة كتامة مستأمنين، وبعفو أمير المؤمنين لائذين، وعلى بابه ترسلا في مثله عن صنهاجة وافدين»[40].

وعلى خلاف ما ذكره ابن خلدون من دخول القائد في طاعة الفاطميين، يذكر ابن الخطيب رواية مغايرة مفادها أن القائد خلع طاعة الفاطميين اقتداء بابن عمه المعز بن باديس، ودعا لبني العباس إلى أن توفي في ذي القعدة من عام 446هـ[41].

المطلب الثاني: السفارات بين الحماديين والأندلس

لم تكن هناك صلات مباشرة بين الحماديين والأندلسيين لعدة أسباب، يأتي في مقدمتها خضوع الحماديين سياسيا للفاطميين لفترة طويلة، خصوصا إذا أخذنا بالحسبان العلاقة المتوترة بين الفاطميين والدولة الأموية في الأندلس، ودور زناتة الموالية للأمويين في

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

الأندلس في سد طريق الاتصال سياسيا مع الحماديين، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الاتصالات في صورة لجوء بعض الحكام الأندلسيين إلى المغرب الأوسط[42]، حيث يذكر أكثر من مؤرخ أن ولي عهد ألمرية معز الدولة بن صمادح، وأهله وبعض رعيته، لجأوا إلى المنصور بن الناصر، بعدما استولى المرابطون على إمارته في الأندلس، فاستضافه المنصور وأقطع له منطقة تدلس التي أقام بها طيلة حياته[43].

2.2 السفارات بين الحماديين والممالك المسيحية:

كان لباباوات روما علاقات حسنة مع الحماديين وخاصة في عهد الناصر بن علناس، وتعود هذه العلاقات إلى بداية تأسيس دولة بني حماد؛ فالحماديين عند بناء القلعة تقبّلوا بها الجالية المسيحية بصدور رحبة، وأحسنوا إليهم مدة دولتهم، وضمنوا لهم حرية دينهم، حيث تذكر المصادر أنه في سنة 508هـ/1114م، تم بناء كنيسة مريم العذراء بالقلعة، كما انتخب مسيحيو بونة أسقفا عليهم يدعى سرفاند، فصادق الناصر بن علناس على هذا التعيين، ولما سافر سرفاند إلى روما أرسل معه الناصر هدايا جليلة ورسالة ودية إلى البابا قرقوار السابع، وأرسل معه جميع الأسرى المسيحيين الذين عثر عليهم في مملكة بني حماد، وتعبيرا عن سرورهم وامتنانهم أرسل رجال الكنيسة الرومانية رسائل شكر وثناء للناصر مع سرفاند حين عودته إلى بونة، هذا الفعل أعجب كثيرا رجال الكنيسة الرومانية، وعند عودة سرفاند إلى بونة أرسلوا معه رسائل شكر وثناء للناصر بن علناس، وأرسل معه البابا أيضا رسالة تعتبر أكبر وأهم رسالة أرسلت من باباوات روما إلى ملوك المغرب، وذلك سنة 469هـ/1076م، ومما جاء فيها:" من جريجوار .. خادم خدام الله.. إلى الناصر ملك موريتانيا ومقاطعة سطيف في إفريقية.. تحيات وبركات رسولية... " كتبتم إلينا تعيين قس، وفقا للشرائع المسيحية وهو هذا القس الخادم (سرفاند) الذي بادرنا بتعيينه، لأن طلبكم كان منصفا". ثم يشكره على إطلاق سراح المسيحيين الذين كانوا أسرى عند الحماديين فيقول: "وفي نفس الوقت أرسلتم إلينا بعض الرسائل، وأطلقتم سراح المسيحيين الذين كانوا أسرى لديكم، مراعاة للطوباوي البارّ بيير، أمير المبشرين، وحبّا لنا. ووعدتم بإطلاق سراح كل من يوجد لديكم ثانية...". ثم يذكر في رسالته أن نبلاء روما أعجبهم هذا الصنيع، وهم يريدون توثيق العلاقات بين الطرفين، وأنهم يتشرفون بتبادل المراسلات والزيارات بين الدولتين[44].

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

من العرض السابق يتبين لنا أن الدولة الحمادية نجحت إلى حد بعيد في تأسيس دبلوماسية قوية في المغرب الأوسط، مكّنتها من حماية مصالحها والحفاظ على كيانها في وجه مختلف التحديات التي كانت تواجهها، كما تبين لنا أن أمراء بني حماد أولوا عناية خاصة بالسفارات بمختلف أنواعها، وبواسطتها تمكنوا من الوقوف في وجه التحديات والأخطار التي كانت تهدّدهم، والنجاح في ربط علاقات متميزة سواء مع جيرانهم في بلاد المغرب أو خلف بحر الروم.

الهوامش

[1]- حماد(405-419هـ/1014-1029م): هو حماد بن بلكين بن زيري بن مناد، كان نسيج وحده، وفريد دهره، وفحل قومه، درس الفقه والجدل في القيروان، وكان شجاعا جوادا، وداهية حصيفا، وأخباره مشهورة، وهو الذي بنى القلعة المنسوبة إليه، فاتخذ بها القصور العالية، والقصاب المنيعة، والمساجد الجامعة، والبساتين الأنيقة، ونقل إليها الناس من سائر البلاد، توفي سنة 419هـ/ 1029م. انظر: لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تح: سيّد كسروي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج2، ص328-329؛ وعبد الرحمن بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج6، ص229.

[2]- القائد بن حماد(419-446هـ/1028-1054م): ولي الحكم بعد وفاة والده حماد سنة 419هـ/1028م، كان جبّارا، سديد الرأي، عظيم القدر، خلع دعوة العبيديين كما فعل ابن عمه المعز بن باديس، إلا أنّ ابن خلدون يقول أنّ القائد راجع دعوة العبيديين لما نقم عليه المعز، ولقّبوه شرف الدولة، توفي سنة 446هـ/1054م، وخلفه ابنه محسن. انظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص229؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص329.

[3]- المعز بن باديس(406- 454هـ/ 1016- 1062م): هو المعز بن باديس بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، ولد بالمنصورية في سنة 398هـ، بويع بإمارة إفريقية وما والاها من بلاد المغرب بعد وفاة والده باديس في سنة 406هـ، ولقّبه الحاكم العبيدي شرف الدولة، كان ملكا جليلا عالي الهمّة، محبا لأهل العلم كثير العطاء، حمل أهل إفريقية على إتباع مذهب الإمام مالك بن أنس ونبذ التشيع، توفي في سنة 454هـ. انظر: أبو العباس بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج5، ص233-234.

[4]- أبو الحسن علي بن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: أبي الفدا عبد الله القاضي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج8، ص89.

[5]- شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ج24، ص114.

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

[6]- ابن الأثير: الكامل، ج8، ص90؛ والهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية، تر: حمّادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ج1، ص163.

[7]- نهاية الأرب: ج24، ص114، 122.

[8]- ابن خلدون: العبر، ج6، ص230.

[3]- الناصر بن علناس(454-481هـ/1062-1088م): هو الناصر بن علناس بن حماد بن بلكين بن زيري بن مناد، وصل إلى الحكم في سنة 454هـ بعد انتقامه من بلكين بن محمد بن حماد، الذي قتل أخته، كان جريئا على سفك الدماء، شديد الغيرة على النساء، عظم شأن آل حماد في أيامه، فبنى المباني العجيبة المؤنقة، وشيّد المدائن العظيمة، وهو الذي بنى مدينة بجاية وسمّاها الناصرية، وبنى بها قصر اللؤلؤة، وغزا المغرب، توفي سنة 481هـ. انظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص229، 232؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص333.

[10]- تميم(454-501هـ/1062-1108م): هو أبو يحيى تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد، ولد بالمنصورية سنة 422هـ، كان حسن السيرة محمود الآثار، مُحِبًا للعلماء، وهو أحد شعراء أبناء الملوك، ولاّه أبوه المهدية سنة 445هـ، ولم يزل بها إلى أن توفي والده سنة 454هـ، فاستبدّ بالملك إلى أنْ توفي سنة 501هـ. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص304-305؛ وأبو عبد الله بن الأبار: الحُلّة السيراء، تح: حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985، ج2، ص21-22؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص325.

[11]- ابن الأثير: الكامل، ج8، ص373؛ والنويري: نهاية الأرب، ج24، ص124.

[12]- ابن الأثير: نفسه، ج8، ص373، 374، 375.

[13]- أبو العباس ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س.كولان وليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج1، ص300؛ وابن الأثير: الكامل، ج8، ص374-375؛ والنويري: نهاية الأرب، ج24، ص126،125،124؛ وروجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص315 وما بعدها.

[14]- jacques thiry: Le sahara Libyen dans L'afrique du nord medievale, Leuven, Belgium, 1995, p217.

[15]- ابن خلدون: العبر، ج6، ص230، 232.

[16]- ابن الأثير: الكامل، ج8، ص90.

[17]- بلارة: هي بنت تميم بن المعز بن باديس، كان مولدها بالمهدية، ولما شبّت وتكامل تهذيبها وحسن تأديبها، زوجها والدها لابن عمها الناصر بن علناس، فأمهرها بثلاثين ألف دينار ذهبًا، فأخذ منه تميم دينارًا واحدًا وردّ الباقي، وفي سنة 470هـ/1078م، زُفّت الأميرة بلارة إلى الناصر، فحضت عنده بمنزلة عالية، وابتنى لها بالقلعة قصرا اشتهر باسمها، وصفه الشاعر الصنهاجي أبو عبد الله محمد بن حماد بعد خرابه قائلا: وقصـــر بـــلارة أودى الزمـــان بـــه **** فأين ما شـــاد منهـــا الســـادة الأُول

انظر: ابن عذارى: البيان، ج1، ص300؛ وحسن حسني عبد الوهاب: شهيرات التونسيات، المطبعة التونسية، تونس، 1934، ص51، 52.

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

[18]- ابن الأثير: الكامل، ج8، ص415؛ وابن عذارى: البيان، ج1، ص300.

[19]- ابن عذارى: البيان، ج1، ص306.

[20]- ابن الأثير: الكامل، ج8، ص455.

[21]- ابن خلدون: العبر، ج6، ص230.

[22]- يحيى بن العزيز(515-547هـ/1121-1152م): هو يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس، طالت سنوات حكمه حيث بلغت اثنتان وثلاثين سنة، تصفه المصادر بأنه كان فاضلا حليما، فصيح اللسان والقلم، مليح العبارة بديع الإشارة، وكان مولعا بالصيد واللهو، وهو آخر ملوك بني حماد. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج9، ص372؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص235؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص334.

[23]- ابن الأثير: الكامل، ج9، ص285.

[24]- أبو عبد الله بن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ، ص90؛ وممدوح حسين: الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري، ط1، دار عمار للنشر، الأردن، 1998، ص206.

[25]- ابن الأثير: الكامل، ج9، ص285؛ وابن خلدون: نفسه، ج6، ص215؛ وابن أبي دينار: المؤنس، ص90.

[26]- ابن الأثير: نفسه، ج9، ص285؛ وأبو محمد عبد الله التجاني: رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص340.

[27]- عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة في تاريخ الجزائر، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص162.

[28]- ابن خلدون: العبر، ج6، ص217.

[29]- ابن خلدون: العبر، ج6، ص230.

[30]- ابن خلدون: نفسه، ج6، ص233، 234؛ وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص334.

[31]- ابن الأثير: الكامل، ج8، ص455.

[32]- موسى هيصام: الجيش الجزائري في العهد الحمادي، منشورات مديرية الثقافة، المدية، 2008، ص118.

[33]- المنصور (481-498هـ/1088-1105م): هو المنصور بن الناصر بن علناس، كان صغيرا عندما ارتقى إلى الحكم سنة 481هـ/1088م، خلفا لوالده الناصر؛ إذ أنّ أمه بلارة بنت تميم تزوجت سنة 470هـ/1077م، وقد وصلته كتب الملوك بالتعزية بأبيه والتهنئة بالملك، منهم يوسف بن تاشفين وجدّه لأمه تميم بن المعز، اقتفى آثار أبيه في الحزم والعزم والرئاسة، وكان جمّاعةً مولعًا بالبناء، وتشييد المصانع واتخاذ القصور. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج8، ص455؛ وابن خلدون: العبر، ج6، ص232؛ وحسن حسني عبد الوهاب: شهيرات التونسيات، ص52؛ وروجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص325.

[34]- ابن خلدون: العبر، ج6، ص234؛ وروجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص330؛ Golvin. L: Le Magrib central à L'époque des zirides, arts et métiers graphiques, Paris, 1957, p126.

https://doi.org/10.34118/jhc.v7i2.4700

[35]- علي بن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص143؛ وابن خلدون: العبر، ج6، ص233.

[36]- ابن أبي زرع: الأنيس، ص155؛ وابن خلدون: العبر، ج6، ص234؛ والقادري بوتشيش: تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1994، ص83؛ وهيصام: المرجع السابق، ص119.

[37]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص333.

[38]- الفتح ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1989، ص310-311.

[39]- ابن خلدون: العبر، ج6، ص229.

[40]- السجلات المستنصرية: تحقيق: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، 1954، ص44.

[41]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص329.

[42]- عويس: المرجع السابق، ص183.

[43]- ابن أبي زرع: الأنيس، ص155؛ وابن خلدون: العبر، ج6، ص234.

[44]- الميلي مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ج2، ص258؛ وعويس: المرجع السابق، ص188.